

## الكتابة العربية وفن الشعر والتأريخ الشعري شي ما وراء النهر

د. شاه رستم غياث شاه موساروف<sup>(1)</sup>

**دخّل** الإسلام بلاد ما وراء النهر (وسط آسيا) مع الفتوحات العربية التي تمت في القرن السابع الميلادي، وقد اعتنقت شعوب تلك المنطقة الدين الإسلامي، ومن هذه الشعوب كان الشعب الأوزبكي الذي تمثل هذا الدين كما تمثل اللغة التي جاءت معه - اللغة العربية، فأقبل أفراد الشعب عليها تعلمًا ودراسة، ومن ثم أصبحت العربية سائدة بين الناس، حتى إنهم ألفوا بها كتبهم وعلومهم إلى جانب اللغتين الفارسية والتركية، وتدارسوا مختلف فنون الأدب العربي ومنها الشعر، وعرفوا حساب الأبجدية للحروف العربية (حساب الجمل).

وبفضل الكتابة الأوزبكية القديمة المبنية على أساس الأبجدية العربية ظهرت خصائص جديدة في فن الشعر ومواضيعه، ومنها "فن التأريخ" الذي دخل الأدب الأوزبكي الكلاسيكي وشاع في المؤلفات الأدبية، وأصبح تقليدًا ومجالًا لعرض المهارات في التأريخ بالكلمات، وكان التأريخ مبنيًا على كلمة واحدة، أو عبارة، لتعيين عمر أحد الأشخاص المعروفين، أو لواقعة مهمة أو لحدث معين، ويكون بتعيين السنة فقط، أو السنة والشهر، أو السنة والشهر واليوم.

وحسب تقاليد الأدب الأوزبكي كان أكثر الشعراء الذين تعاملوا مع فن التأريخ يذكرون في مؤلفاتهم مولد الشخصيات البارزة أو وفياتهم، أو الأحداث التاريخية المهمة التي وقعت، أو المعارك التي دارت من أجل استقلال الوطن، أو الأعمال الخاصة بنشيد المباني، وكان فن التأريخ عند الشعراء الكلاسيكيين وسيلة للتعبير عن مهاراتهم الإبداعية، ومرآة تعكس تمثلهم لهذا الفن الجديد.

ومما جاء في هذا الفن بالتأريخ بكلمة واحدة ما ورد عن المولى جمشيد المعماي الذي ألف كتابًا عن حياة الشاعر عبد الرحمن جامي، مستفيدًا من حساب حروف كلمة "كأس" التي تعني في الفارسية (جام - زجاج)، حيث إن مجموع حروف "كأس" يساوي (81)، فإن حرف الكاف يساوي

(1) جامعة طاشقند للدراسات الشرقية - جمهورية أوزبكستان.

(20)، والألف يساوي (1)، والسین يساوي (60)، وكانت وفاة الشاعر جامي عن واحد وثمانين عاماً.

كذلك قال علي شير نوائي في مقطع رباعي:

بونا مكيم لساتم أولد قائل

قل كم تلي نوع إل إشیکا مائل

تاريخي خوش لفظي دن أولد حاصل

هرکم أو قوسا إلهي بولغاي خوش دل

وترجمته :

هذه وصيتي أقولها بلساني

يجب أن يكون الناس راضين عما تكتب

التاريخ كان مستفاداً في لفظه الجيد

وسيسرّ من يقرأ هذا إن شاء الله

ففي هذا الأثر نجد أن الكلمة المعنية هي "خوش"، فإذا جمعنا حروفها كان العدد موافقاً للسنة التي ألف فيها الشاعر كتابه المشهور "محبوب القلوب"، وهي سنة 906هـ.

وعندما أنهى هذا الشاعر المبدع كتابه "محاكمة اللغتين" كتب ما يلي بالتأريخ الصريح:

"أعلم أيها القارئ أن قلّمي كتب الرسالة لكي تعلم أن تمام كتابتها كان في عام 905هـ، وكان شهره جمادى الأولى، ويومه الرابع، وتمّ اختتامه بعون الله تعالى".

وحاز الشاعر الخوارزمي محمد رضا آكهي سمعة طيبة في فنّ التأريخ، وكان ذا موهبة وماهرا فيه، ونورد ما جاء في كتابه "كولشاني دولت" عن وفاة خان خيوا سيّد محمد بهادر خان<sup>(1)</sup>، قال:

جشم بوشيده جن روي دهر

خان جنت مقام شول تاريخ

وترجمته :

العين المختفية وراء وجه الدهر

"خان جنت مقام" هذا هو التاريخ

(1) - د. سلطانوف، مؤلف "كولشاني دولت" وفن التأريخ، مجلة اللغة الأوزبكية والأدب، عام 2000، العدد الأول، ص 43.

إن عبارة "خان جنت مقام" تساوي العدد (1285)، وبموجب عبارة "جشم بوشيد جن روي دهر"، فإن "جشم بوشيده" تعني (العين المختفية)، وكلمة "دهر" تبدأ بحرف الدال وقيمته (4)، وبطرح هذا الرقم من العدد (1285) يتضح لنا أن وفاة الخان كانت سنة 1281هـ.

إن مهارة آكهي هنا تتبدى في استعمال قيمة حروف الألفاظ ومعانيها، حيث يجب علينا معرفة حساب الحروف ومعرفة معاني الكلمات لنذكر اللغز المراد، وهو أن نطرح حرف الدال (في أول كلمة دهر) من مجموع العبارة.

ونذكر آكهي في شعره ما يلي :

آكهي بيري هيرادن قلدي تاريخ ني سؤال

أيتب إظهار فرح ديدي "حصر خوش بنا"

وترجمته :

تساءل آكهي عن التاريخ

وكان الجواب المفرح "سنة تشييد المبني"

إن عبارة "حصر خوش بنا" هي المبينة للتاريخ المراد، فمجموع حروفها هو (1257)، وهذا يوافق السنة التي بنى فيها الخان الخوارزمي جدار قلعة مدينة خيوا وهي سنة 1257هـ.

إن التقليد الموجود في كتابة التاريخ في الأدب الكلاسيكي الأوزبكي انتشر بصورة كبيرة، وذلك بفضل الكتابة الأوزبكية القديمة المبنية على أساس الأبجدية العربية، وكان الأدباء والشعراء الذين ألفوا كتبهم بالحروف العربية يعرفون جيدا حساب الأبجدية، وكانوا يخفون الأرقام داخل الكلمات، وقد أتقنوا بصورة جيدة فن كتابة التاريخ، ونذكر من العلماء والشعراء الذين برعوا في هذا الفن: علي شير نوائي، ودوربك، وآكهي، وتوردي، وشوقي، ومقيمي، ومحمد يونس راجي، وطبيبي، وصلي السمرقندي، وتولي، وحصلت، وراقم، ورونق...

وكما أفاد الشعراء من أرقام الحروف نجدهم أفادوا أيضا من أشكالها، وكان هذا لمعرفة فن الخط العربي واهتمامهم به.

ومعلوم أن المدارس كانت تدرس الأبجدية الأوزبكية القديمة المبنية على الأبجدية العربية حتى سنوات الثلاثين من القرن العشرين، ومن أجل تخريج جيل من الشباب يتقن الكتابة والقراءة على أحسن وجه فقد سعى المؤدبون الأوزبكيون إلى تعليمهم الكتابة الأوزبكية القديمة، وكذلك تدريسهم "علم الأرقام" وقاموا بشرح هذا الأسلوب بسهولة، وفسروا كل حروف الأبجدية العربية وطريقة كتابتها وقواعد قراءتها، وعلموهم الخط العربي عن طريق كتابة الشعر به، وكان هذا الأسلوب أكثر فائدة لتعليم القراءة والكتابة، كما كان له دور مهم في رفع المستوى التعليمي والإبداعي للتلاميذ، ومن أهم المؤلفات في هذا المجال كتاب الشاعر الخوارزمي شير محمد مونس (1829-1878م)،

الذي ألفه بعنوان "سوادى تعليم" أي (مبادئ تعليم الكتابة والقراءة)، وهو كتاب مدرسي<sup>(1)</sup>.

وكان لهذا الكتاب أهمية بالغة في المجال التعليمي والتنويري، وقد وصف بمهارة تامة كل الحروف المبينة على الأبجدية العربية كتابة وقراءة على السواء، وكان هذا الكتاب يتميز بإبداعه حيث إنه في بداية الأمر يتناول حمد الله والثناء عليه، ثم الصلوات على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم مدح حكام عهده، ووصف الأساتذة والخطاطين الذين اخترعوا أنواعا من الخط، وخلال وصفه لهم كان دائما يذكر أشهر علماء النحو والصرف العربي، ومن بينهم ابن الحاجب الذي اخترع أروع أنواع الخط العربي، وكتب عنه ما يلي:

جمع الفضل في كل العلوم

وفي كل حكم كان نافذ القول

وفي علمه كان يوجب احترام أهل العلم.

وقام الشاعر مونس بشرح كتابة كل حرف في الأبجدية وصيغته وعلاقته بالحروف الأخرى فقد كتب عن حرف "ث" ما يلي:

ضع سبع نقاط حادة واحصل على الشين

وحدد بين كل نقطتين مسافة ما

أما التدوير فيكون بنفس القطع

وهكذا تحصل على أحسن حرف

كل الحروف تكتب مساوية للألف

وحرف الذال خط ملتو

وشكله كما هو معلوم مثل قوس النذاف

وإذا لم تقدر على كتابته مثل الأصل

فمن الأحسن فهم كلام الشاعر مونس

وفي حال كتابتك لحرف الشين

يتحول شكله داخلا إلى شكل القارب.

ولكي يتعلم التلميذ بسهولة تامة كتابة الحروف العربية شبيهها الشاعر الأوزبكي بمختلف أنواع الصيغ والأشكال والأشياء والكائنات الحية، ووصفها على أحسن وجه، لأن التلميذ عندما يتمرن على كتابة الحرف وهو يشبهه بالأشياء التي يعرفها يتمكن بسهولة من تعلم الكتابة والقراءة وإتقان فن الخط، ولما قام الشاعر بتفسير حرف "الياء" كتب عنه ما يلي:

(1) - شير محمد مؤنس، سوادى تعليم، إعادة النشر، طشقند 1997م.

شكله شبه شكل الرقبة

مثل التفات الإوزة برقيتها

وبإضافة نقطتين تحتها يصبح حرفاً جميلاً

وأوله يشبه بداية حرف العين.

كما شبه الشاعر حرف "الزاي" بالطير في قوله:

حرف الـ"ر" مسافته ثلاث نقاط

وشكله يشبه شكل الطير.

إن كتاب العلامة مونس ليس كتاباً مدرسياً علمياً متطوراً فحسب، بل هو في الوقت نفسه كتاب رائع في إبداعه وليس له مثال، هذا الكتاب المكرس لدراسة الكتابة الأوزبكية القديمة المبنية على أساس الأبجدية العربية كان وسيلة ومنهجاً في التدريس.

وبفضل انتشار الكتابة العربية عند شعوب وسط آسيا تطور في المنطقة فن الكتابة وفن الخط العربي، وقد كان هذا الخط من الذخائر المعنوية، وكان الخطاط يُقدر تقديراً عالياً لإتقانه هذا الفن الرائع، وكما هو معلوم فإن الكتابة العربية بالخط الكوفي لها ستة أنواع، وحسب قول العلامة "ابن مقلة" الذي عاش في القرن الحادي عشر: إن الخط العربي يسمى المحقق (الثلاث، والرقعة، والتعليق، والريحاني، والنسخ، والتوقيع)، وتمكن العلامة "ابن البواب" الذي عاش في العصر نفسه من اختراع ستة عشر نوعاً من الخط العربي، ثم ظل هذا الخط يتطور حتى وصل إلى ستة وثلاثين نوعاً.

كتب الشاعر العبقري علي شير نوائي في أحد مؤلفاته بعنوان (خزائن المعاني) الذي يضم ديوانه (فوائد الكبار) ما يلي: سبحانه اللهم وتعاليت أسألك أن يصبح نوائي خطاط العجم، وذلك لكي يتمكن من الزيادة على الستة والثلاثين خطأ، أما العالم الأوزبكي "مرادوف" الذي قام ببحوث علمية في دراسة تاريخ الخط العربي وفنه في وسط آسيا، معتمداً على الرسالة العلمية لخط العلامة "محمد ابن حسين الطيبي" و "الحبيب"، فقد أشار إلى أن أنواع الخط العربي كان عددها يناهز الستة والثلاثين خطأ، علماً بأنها كانت هي نفسها خطوط الكتابة الأوزبكية القديمة المبنية على الأبجدية العربية، عددها كما يلي:

الكوفي، والتمار، والجليل، والمجموع، والرئاسي، والثلاثان، والنصف، والجواني، والمثلث، وغباري الحلية، والمنصور، والمقترن، والحواشي، والأشعار، واللؤلؤ، والمصاحف، وفزاح النسخ، والغبار، والأحد، والمعلق، والمؤامرات، والمعامة، والمحدث، والمدمج، والمكور، والممزوج، والمفتاح، والمؤلف، والمخفف، والمرسال، والمبسوط، والنوءمان، والمعجز، والمخلع، والديواني، والسياقة<sup>(1)</sup>.

(1) - د. مرادوف، تاريخ الخط في آسيا الوسطى، طشقند 1967م، ص 8.

يظهر مما سبق أن الخط العربي تطور في منطقة وسط آسيا تطوراً كبيراً، وفي أثناء حكم الأمير تيمور اخترع نوع من الخط الأوزبكي القديم المبني على الأبجدية العربية سمي بخط النسخ- نستعليق، فقد قام كبير الخطاطين "مير علي التبريزي" و "سلطان علي مشهدي" باختراع هذا الخط، وشاع استعماله في فن صناعة الكتب في وسط آسيا، وعلاوة على ذلك استخدم خط الثلث وخط النسخ في الكتابة الأوزبكية بصورة عامة، وكان للمدن والمراكز العلمية (مثل بخارى سمرقند وخيوا وهراة) دور كبير ومهم في تطور الخط الأوزبكي القديم، وقامت مدارس تعليم الخط بمهمة بارزة في هذا الاتجاه، وخلال الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر وصل عدد الخطاطين الذين عاشوا وألفوا كتبهم في بخارى إلى (137) مائة وسبعة وثلاثين خطاطاً، وقد أسس الخطاط "مير علي هراوي" -من هراة- مدرسة بخارى للخط، وتعلم عليه خطاطون كبار مثل: حلوان، ومير عبيد، والمولى ساقى محمد، وقولنكي، وعبد الله كاتب، الذين ألفوا العديد من كتب الخط العربي في البلاد، واشتهرت مؤلفاتهم حتى وصلت إلى الشرق العربي أيضاً<sup>(1)</sup>.

وكان ثمة عامل مهم لتصبح بخارى من أكبر المراكز للخط العربي، فبعد الفتوحات الإسلامية في وسط آسيا تحولت هذه المدينة إلى مكان مهم للحضارة الإسلامية والثقافة العربية، وشيد فيها الكثير من المدارس والمساجد والمراكز العلمية، وقام أغلب العلماء والفقهاء والمحدثين والمؤرخين بتأليف كتبهم في مسائل الدين الإسلامي الحنيف في هذه المدينة بالذات، كما أتى إليها الطلاب من جميع أقطار الشرق للحصول على العلم والمعرفة، فساعد هذا في تطور فن الكتابة والخط العربي، وهكذا أصبحت بخارى من أكبر المراكز العلمية لفن الخط العربي في منطقة وسط آسيا.

كما كان لمدينة خيوا مكانتها التقليدية في هذا الفن، حيث تخرج في مدارسها كثير من الخطاطين الكبار أمثال: نويسي الخوارزمي، والسيد عبد الرحمن الخوارزمي، والمولى سلطان علي الخوارزمي، وعز الدين البخاري، ويعقوب ديان الخوارزمي، وخدايركان مهركان، ويعقوب خواجه، وبالطه نياز ناديمي، ومحمد كامل ديواني، وغيرهم.

وبفضل الاستخدام الدائم لحروف الكتابة العربية خلال القرون الطويلة في وسط آسيا أصبح من الممكن التأليف في الفنون البديعية اعتماداً على فن الخط، وكان "علي شير نوائي" يصور حاله وحال أبطال قصائده بالحروف العربية، وقال في وصف حاله ما ترجمته:

أصبح حالي مثل حال قيس ليلى  
وتحول جسدي إلى شبه حرف النون  
وقامتي معوجة مثل الـ(د).

(1) - د. مرادوف، عن بعض الخطاطين الذين قاموا بوضع الأساس لمدرسة بخارى للخط العربي، مجلة اللغة الأوزبكية والأدب، 1966م، العدد 4.



الألم، وعبر هذه الحروف تمكن الشاعر من إعطاء معان نفسية واضحة في روايته لبطله "فرهاد"، حيث اعتمد أثناء وصف الوقائع على حياة بطله في المستقبل، وخاصة الشعور بفراق محبوبته "شيرين"، وتعرضه لعذاب الحب ونيران الغيرة التي أحرقته، والألم الشديد الذي عاناه في الحب، وكل هذا وصفه في سطر واحد.

إن هذا لدليل ساطع على أن الحروف العربية كان لها أثر كبير في إثراء الموهبة الشعرية لدى الشعراء الأوزبكيين، كما كانت ذات تأثير بالغ في تنويع الأدب الأوزبكي خاصة، وإدخال فنون جديدة إلى الأدب في منطقة وسط آسيا بعمامة.

\*\*\*

### المصادر والمراجع:

- فرهاد وشيرين، علي شير نوائي، طشقند 1989م، ص31.
- تاريخ الخط في آسيا الوسطى، د. مرادوف، طشقند 1967م، ص8.
- د. مرادوف، عن بعض الخطاطين الذين قاموا بوضع الأساس لمدرسة بخاري للخط العربي، مجلة اللغة الأوزبكية والأدب، 1966م، العدد 4.

- مجموعة الأعمال الكاملة، آكهي، طشقند 1981م.
- د. سلطانوف، مؤلف "كولشاني دولت" وفن التاريخ، مجلة اللغة الأوزبكية والأدب، عام 2000، العدد الأول، ص43.
- سوادبي تعليم، شير محمد مؤنس، إعادة النشر، طشقند 1997م.
- مجموعة الأعمال الكاملة، علي شير نوائي، طشقند 1990م.

□□□